مَنزلة العِلم والعُلمَاء فى ضَوءِ السُّنَّة

تكاثرت أحاديث النبى ﷺ ... وتتابعت - بعد آيات القرآن الكريم - فى بيان فضل العلم ومنزلة العلماء عند الله وعند الناس، فى الدنيا والآخرة، ورفعت العلماء مكانًا عليًا، لا يسعى إليه على قدم، ولا يُطار له على جناح إلاّ بوساطة العلم.

ولا ريب أن أولى العلوم بذلك هو علم الدين، الذى به يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، ويهتدى إلى غايته، ويكتشف طريقه، ويعلم ماله وما عليه، ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدى الناس إلى حق، أو تقربهم من خير، أو تحقق لهم مصلحة، أو تدرأ عنهم مفسدة.

يقول ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا، يُفقهه فى الدين (١)».

ويقول: «مَنْ سلك طريقًا يلتمسُ فيه علمًا، سهل الله به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ فى بيت من بيوت الله، يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكةُ، ونزلت عليهم السكينةُ، وغشيتهم الرحمةُ، وذكرهم الله فيمن عنده (٢)».

ويقول: «إن الملائكة لتضع أجنحتَها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفرُ له مَنْ فى السماوات ومَنْ فى الأرض، حتى الحيتانُ فى الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ

---

(١) متفق عليه عن معاوية. كما فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان برقم (٦١٥).

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الذكر والدعاء برقم (٢٦٩٩).

الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر [1]».

فهذه الأحاديث تدل على فضل العلم، وبخاصة العلم بالدين، أو على حد تعبير الحديث: الفقه فى الدين. والواقع أن الفقه فى الدين أخص وأعمق من مجرد العلم بالدين، فالعلم معرفة بالظاهر فحسب، والفقه معرفة بالظاهر واللب معًا، والعلم يتصل أكثر ما يتصل بالعقل وحده، والفقه بالعقل والقلب جميعًا.

ولهذا فإن مجرد العلم بالأحكام الشرعية الجزئية كأحكام الطهارة والنجاسة والرضاع والطلاق والبيع والشراء كما هو مدلول الفقه فى إصطلاح الخلف، لا ينشئ الفقه المراد فى الحديث، والذى هو دليل على إرادة الله الخير بصاحبه.

وحسب هذا العلم فضلاً أن مجالسه تحفها ملائكة الله، وتنزل عليها السكينةُ، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله فى الملأ الأعلى.

وهذه الملائكة التى تحف مجالس العلم تضع أجنحتها لطالبيه، فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل ... والحف حفظ وحماية وصيانة.

فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له، وحبها إياه، وحمايتها له، وكفى بهذا شرفًا وفضلاً.

هذه الأحاديث ومثلها كثير وكثير بجوار ما جاء فى القرآن من آيات غزيرة وفيرة، جعلت أصحاب رسول الله - ﷺ - ومَنْ تبعهم بإحسان على مر

---

(١) رواه عن أبى الدرداء: أحمد (٥/١٩٦) وأبو داود فى العلم (٣٦٤١) والترمذى فى العلم (٢٨٦٣) وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٨٨) وحسنه حمزة الكنانى، وضعفه غيرهم بالاضطراب فى سنده لكن له شواهد يتقوى بها ذكره الحافظ فى الفتح ١/١٦٩ طبعة الحلبى، ونقل الشيخ البنا فى «الفتح الربانى» ١/١٥٠ عن صاحب «التنقيح» أن رجال أحمد رجال الحسن، كما حسن إسناد الحاكم، ونسبه أيضا إلى النسائى وأبى يعلى والطبرانى فى الكبير، قال: وصحح البخارى بعض طرقه. ا.هـ. وصححه الألبانى، انظر: صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧).

القرون، يشيدون بشأن العلم، وينوهون بقدر العلماء، تحريضاً على طلب العلم والزيادة منه، وتحذيراً من الجهل وما يجره على أهله من شؤم فى الدنيا والآخرة.

يقول عمر: أيها الناسُ، عليكم بطلب العلم، فإن لله رداء محبة، فمن طلب باباً من العلم، ردَّاه الله بردائه ذاك [١].

وسأل رجل ابن عباس عن الجهاد فقال له: ألا أدلُّك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تبنى مسجداً تعلم فيه القرآن، وسُنن النبى ﷺ، والفقه فى الدين [٢].

وقال ابن مسعود: نعم المجلس مجلس تُنشر فيه الحكمة، وتُنشر فيه الرحمة[٣]. يعنى مجلس العلم.

وقال معاذ بن جبل: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشيةً، وطلَبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه مَنْ لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس فى الوحدة، والصاحبُ فى الخلوة، والدليل على الدين، والنصير على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب، عند القرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفعُ الله به أقواماً، فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتفى آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس يستغفر لهم، حتى حيتانُ البحر وهوامه، وسباعُ البر وأنعامه، والسماءُ ونجومها ... إلى أن قال: -

به يُطاع الله، وبه يُعبد، وبه يُوحد، وبه يُمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعُه، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء [٤].

---

(١) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر ١ / ٧٠. (٢) نفسه ٧٣، ٧٤.

(٣) نفسه: ٦٠.

(٤) رواه ابن عبد البر، وأبو نعيم، والخطيب موقوفًا على معاذ، ورفعه بعضهم. ولا يصح. قال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة: وحسبه أن يصل إلى معاذ.

وقال الحسن: لولا العلماءُ، لصار الناس مثل البهائم، أى أنهم بالعلم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آبائهم وأمهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وسئل ابنُ المبارك: من الناسُ؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد.

قال الغزالى: ولم يجعل غير العالم من الناس، لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هى العلم، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه (جسمه) فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه، فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته، فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله، فإن الثور أوسع بطنًا منه، ولا ليجامع، فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا للعلم (١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حاجة الإنسان إلى العلم أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب.

العلم دليل الإيمان:

والعلم فى نظر الإسلام ليس مقابلا للإيمان، فضلاً عن أن يكون معاديا له كما شاعت هذه الفكرة فى أوربا فى القرون الوسطى، حين وقفت الكنيسة فى تلك العصور تؤيد الخرافة، وتحارب العلم، وتناصر الجمود والتقليد، وتقاوم التفكير الحر والابتكار المبدع، وتدافع عن القوى المتسلطة من حكام وإقطاعيين، وتقف فى وجه الشعوب والفئات المسحوقة.

الإسلام لم يعرف هذا الصراع بين العلم والإيمان فى تاريخه، لأن هذه الفكرة لا مجال لها فى تعاليمه، لا نصاً ولا روحًا.

---

(١) الإحياء ج ١/ ٧.

أما النصرانية، فتقوم أساسًا على أن الإيمان قضية لا علاقة لها بالفكر، بل هى ضده، فهى لا تدخل فى دائرة العقل والعلم، بل فى نطاق الوجدان والقلب، وليس من شرط العقائد أن تكون مقبولة عقلاً، بل يحسن بها أن تكون شيئا فوق العقل، ولهذا كان من الشعارات المرفوعة عند النصارى «آمن ثم اعلم». أو «اعتقد وأنت أعمى»!

وآخر يقول على لسان القسيس: «أغمض عينيك ثم اتبعنى»!

وذلك لأن العقيدة النصرانية مؤسسة على قضايا يرفضها العقل المجرد، مثل التثليث والتخليص والفداء، وما يتفرع عنها، وما يلحق بها، حتى قال بعض فلاسفة النصارى فى بعض معتقداتهم «اللامعقولة» وهو القديس (أوجستين): أؤمن بهذا، لأنه محال!

وهذا على عكس الإسلام الذى يرفض فى بناء العقيدة «التقليد» و«التبعية» كقول من قالوا: ﴿**حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [المائدة: ١٠٤] أو ﴿**إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ**﴾ [الأحزاب: ٦٧] أو «أنا مع الناس»(١).

ويرفض أيضا الظن، حيث لا يغنى فى شأن العقائد إلا العلم واليقين. ولهذا أنكر على النصارى عقيدتهم فى الصلب بقوله: ﴿**مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال فى شأن المشركين وآلهتم المزعومة: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ**﴾ [النجم: ٢٣]. ثم قال: ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم: ٢٨]

---

(١) كما فى الحديث الذى رواه الترمذى: «لا يكن أحدكم إمعة: يقول: «أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت». رواه فى البر والصلة (٢٠٠٨) وقال: حسن غريب.

ويأبى القرآن إلا أن تبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادئ، ولأجل هذا صاح القرآن فى أصحاب العقائد الباطلة: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

ولا عجب أن تكررت فى القرآن هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته، والمحررة للإنسان من ربقة تقليده وجموده، مثل (أفلا تعقلون). (أفلا تتفكرون)، (أفلا ينظرون). (أو لم ينظروا). (أو لم يتفكروا). (لقوم يعقلون). (لقوم يعلمون). (لقوم يتفكرون).

وحسبك أن تقرأ هذه الدعوة القوية الصريحة إلى التفكير: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذا ما دعا الأستاذ عباس العقاد - رحمه الله - أن يخرج كتابًا عنوانه: «التفكير فريضة إسلامية» وهذا تعبير صحيح، فالإسلام كما فرض على الناس أن يتعبدوا، فرض عليهم أن يتفكروا.

فالعقيدة فى الإسلام تقوم على العلم لا على التسليم الأعمى، يقول القرآن: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [١٩/ القتال] ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨] ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

لم يخش القرآن عواقب الدعوة إلى النظر والتفكر والعلم أن تأتى بنتائج تناقض حقائق الدين ومسلماته، لأن فكرة الإسلام: أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن تناقض الحقيقة العقلية، فالحق لا يناقض الحق، واليقين لا يعارض اليقين، إنما يعارض اليقين الظن، وتنافى الحقيقة الشك أو الوهم أو الافتراض.

ومن هنا لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقول، وإذا بدا لنا فى بعض الأحيان تناقض ظاهرى، فلا بد أن يكون المنقول غير صحيح، أو المعقول غير صريح.

وهذا يقع كثيراً: أن يظن ما ليس من الدين دينًا، وأن يحسب ما ليس من العلم علمًا.

فليست كل أفهام أهل الدين ديناً، كما أنه ليست كل نظريات أهل العلم علماً.

إن القرآن يعتبر العلم الحق داعية إلى الإيمان، ودليلا إليه.

قال تعالى: ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج: ٥٤].

فهذه المعانى الثلاثة مترتب بعضها على بعض: كما يدل عليه العطف بحرف (الفاء) التى تفيد الترتيب والتعقيب بلا صلة.

فالعلم يتبعه الإيمان تبعية ترتيب بلا إمهال ليعلموا فيؤمنوا.

والإيمان تتبعه حركة القلوب من الإخبات والخشوع لله تعالى، وهكذا يثمر العلم الإيمان، ويثمر الإيمان الاخبات والتواضع لله رب العالمين.

وفى آية أخرى يذكر العلم والإيمان متعاطفين جنبًا إلى جنب كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ** ﴾ [الروم: ٥٦].

فالعلم والإيمان فى الآية الكريمة مقترنان متعاطفان، وليسا من الأضداد التى إذا ثبت أحدهما، انتفى الآخر.

وإذا أردنا بالعلم: العلم بمفهومه الشائع اليوم، وهو المادى القائم على المشاهدة الحسية والتجربة – فلا ننكر أيضا قيمة هذا العلم، وحاجة الناس إليه لأن العلم المادى مطلوب للإنسان ولا شك، ولكنه مطلوب طلب الوسائل لا طلب الغايات.

وهو يعين الإنسان على الحياة، وييسر له سبلها، ويختصر له الزمان، ويطوى له المكان: فيقرب البعيد، ويلين الحديد، ولكنه وحده لا يستطيع إسعاد البشر، كما لا يمكنه وحده أن يضبط سير البشر، ويقاوم أنانية الإنسان ونزعات نفسه الأمارة بالسوء.

ولهذا كان الإنسان فى حاجة ماسة إلى «العلم الدينى» الذى ينمى الإيمان

ويحيى الضمائر، ويغرس الفضائل، ويقى الإنسان شُحَّ نفسه، وطغيان غرائزه على عقله، وهواه على ضميره، وهذا هو الذى يعصم «العلم المادى» من الانحراف، ويحول دون استخدامه فى التدمير والعدوان.

وقد ضرب لنا القرآن مثلاً بسليمان عليه السلام – الذى آتاه الله ملكا لم يُؤته أحداً من بعده.

فقد أحضر إليه عرش بلقيس من سبأ باليمن إلى مقره بالشام، قبل أن يرتد إليه طرفُه، بفضل ذلك الذى وصفه القرآن بأنه (عنده علم الكتاب) وهنا تجلى الإيمان حين أرجع سليمان الفضل إلى الله لا إلى نفسه، فلم يركبه الغرور، أو يستبد به الطغيان: ﴿ **قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل: ٤٠].

وكذلك كان موقف ذى القرنين الذى فتح الفتوح غربًا وشرقا، وتوج حكمه بإقامة سده العظيم، مستخدمًا ما يَسَّرَهُ له علمُ عصره من وسائل وأدوات، فلما أتم البناء قال فى تواضع المؤمنين: ﴿ **هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾ [الكهف: ٩٨].

ألا إن العلم الحق هو الذى يهدى إلى الإيمان، والإيمان الحق هو الذى يفسح مجالاً للعلم، فهما إذن شريكان متفاهمان، بل أخوان متعاونان.

وهذا هو العلم الذى يريده الإسلام أيًا كان موضوعه، ومجال بحثه. يريده علمًا فى ظل الإيمان، وفى خدمة مثله العليا، وإلى ذلك أشار القرآن حين قال فى أول آية نزلت: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ [العلق: ١] والقراءة عنوان العلم ومفتاحه ومصباحه، فإذا كان أول أمر إلهى نزل به القرآن: «القراءة» كان ذلك أوضح دليل على مكانة العلم فى الإسلام.

ولكن القرآن لم يطلب «مطلق قراءة» وإنما طلب قراءة مقيدة بقيد خاص وهو أن تكون «باسم الله»، أوكما قال القرآن ﴿ **بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾.

وإذا كانت القراءة باسم الله ، فقد وجهت إلى الحق والخير والهداية، لأن الله تعالى هو مصدر هذا كله.

ولا غرو أن نشأ العلم فى الإسلام فى أحضان الدين، وأن نشأت المدارس فى صحون المساجد، وبدأت الجامعات الإسلامية العريقة تحت سقوف الجوامع، بل سمى كل منها جامعًا: جامع الأزهر، جامع القرويين، جامع الزيتونة ... وهكذا.

وكانت هذه الجوامع أو الجامعات تدرس علوم الدين، وعلوم الدنيا معًا، وكان كثير من العلماء التجريبيين هم فى نفس الوقت علماء دين، مثل القاضى ابن رشيد الحفيد مؤلف «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» فى الفقه المقارن ومؤلف «الكليات» فى الطب.

ومثل الخوارزمى الذى ألف كتابه الفريد – الذى أسس به علم الجبر. ليحل به مشكلات فى الوصايا والمواريث من أبواب الفقه !.

* * *

العلم دليل العمل:

والعلم فى نظر الإسلام دليل للعمل أيضًا، كما هو دليل للإيمان.

ترجم الإمام البخارى فى جامعه الصحيح: «باب العلم قبل القول والعمل»، وقال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط فى صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما، مصحح للنية المصححة للعمل، فنبه المصنف (يعنى البخارى) على ذلك، حتى لا يسبق إلى الذهن – من قولهم: إن العلم لا ينفع إلا بالعمل – تهوين أمر العلم، والتساهل فى طلبه»[1].

واستدل البخارى لما ذكره بجملة من الآيات والأحاديث منها: قوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [القتال: ١٩]

---

(١) «صحيح البخارى» بشرح فتح البارى: ج ١ / ١٦٩ طبعة الحلبى.

فبدأ بالعلم، وثنّى بالعمل، ورأس العلم معرفة الله تعالى وتوحيده. والخطاب وإن كان للنبى «ﷺ»، فهو متناول لأمته.

وقال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

أى: إنما يخاف الله عز وجل ويقدره حق قدره، من عرفه، وعلم عظيم قدرته، وسلطانه على خلقه، نتيجة التأمل فى أسرار كونه وشرعه، وهم العلماء. وهذه الخشية هى التى تحفز على عمل الصالحات، واجتناب السيئات.

وقال النبى - ﷺ -: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»(١)، وذلك لأنه إذا فقه عمل، وأحسن ما عمل. وأدنى درجات الفقيه - كما يقول الإمام الغزالى - أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا. وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برئ بها من النفاق والرياء(٢).

يؤيد ذلك ما رواه زيد بن أسلم: أن النبى ﷺ دفع رجلاً إلى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ...) فقال الرجل: حسبى فقال الرجل، (أى: المعلم): يا رسول الله، أرأيت الرجل الذى أمرتنى أن أعلمه لما بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) فقال: حسبى؟

فقال النبى - ﷺ -: «دعه فقد فقه»(٣).

والسياق يدل على أن المعنى: قد استنار قلبه بنور الإيمان، والخشية من الله، يدل لذلك ما رواه المطلب بن عبد الله بن حنطب: أن رسول الله - ﷺ - قرأ فى مجلس - ومعهم أعرابى جالس - «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» فقال الأعرابى: يا رسول الله، أمثقال ذرة؟ قال: «نعم» فقال

---

(١) متفق عليه عن معاوية - تقدم تخريجه. (٢) «الإحياء»: ج ١ ص ٥.

(٣) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم كما ورد فى الدر المنثور ج ٦/ ٣٨١، ٣٨٢.

الأعرابى: واسوأتاه! ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله - ﷺ -: «لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان» (١).

فكلمة النبى - ﷺ - هنا: «لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان» فى معنى قوله فى الحديث السابق: «فقد فقه».

العلم شرط لصحة العمل:

وبهذا يتبين أن العلم شرط ضرورى للعمل، لكى يصح ويستقيم على أمر الله، سواء كان هذا العمل عبادة لله، أم معاملة للناس.

روى سفيان بن عيينة عن عمر بن عبد العزيز، قال: من عمل فى غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح (٢).

وفى حديث معاذ بن جبل السابق فى فضل العلم قال: وهو إمام العمل، والعمل تابعه.

لا تصح عبادة بلا علم:

فلا تستقيم عبادة يجهل صاحبها ما يجب لها من شروط، وما تقوم عليه من أركان، وما يبطلها من أعمال.

ولهذا قال النبى - ﷺ - للرجل الذى أساء صلاته ولم يؤد لها حقها من الطمأنينة: «ارجع فصل، فإنك لم تصل» (٣). وإنما قال له: «لم تصل» مع أنه أدى الصلاة أمامه، لأن صلاة منقوصة مبتورة كلا صلاة.

لا تصح معاملة بلا علم:

وفى المعاملات وشؤون الحياة عامة: شخصية وأسرية واجتماعية، يجب أن يعرف فيها الصحيح من الفاسد، والحلال من الحرام، حتى لا يتورط فى الحرام وهو لا يدرى. والجهل بالأحكام فى دار الإسلام ليس عذراً.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور كما فى الدر: ج ٦/ ٣٨١.

(٢) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر: ج ١/ ٣٣.

(٣) حديث المسئ صلاته مشهور، رواه الشيخان وغيرهما فى كتاب الصلاة من حديث أبى هريرة انظر: نيل الأوطار، ج٢ ص ٢٩٤، ٢٩٥ وأنظر: اللؤلؤ والمرجان (٢٢٤).

obeikandi.com

فما كان من الحلال بيناً فلا جناح عليه فى فعله أو تركه، وما كان من الحرام بيناً فلا عذر له فى ارتكابه، وما كان من المشتبهات التى «لا يعلمهن كثير من الناس» فالجزم أن يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه. «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه»(١).

وكان السلف يوصون التاجر الذى يدخل السوق أن يتفقه فى أحكام البيوع والتعامل، أو يلزم فقيها يسدده ويرشده، كما كانوا يوصون من يؤهل نفسه للسيادة والقيادة، أن يتزود من العلم بما يلزم لمنصبه، وما ينير له الطريق. ومن مأثور قولهم: تفقهوا قبل أن تسودوا.

العلم شرط لتولى المناصب القيادية:

وقد قدم يوسف الصديق نفسه لملك مصر، ليضعه حيث يجب أن يوضع مثله، مشيراً إلى مؤهلاته الشخصية، وعلى رأسها الحفظ (يعنى الأمانة) والعلم قال: ﴿ ..... **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾

[يوسف: ٥٥]

وفى الأعمال القيادية العليا – مثل الإمامة العظمى والقضاء – اشترط الفقهاء فيمن يتولاها: العلم الاستقلالى الذى يبلغ بصاحبه درجة الاجتهاد، حتى إذا استفتى أفتى بعلم، وإذا أمر أمر بحق، وإذا حكم – حكم بعدل، وإذا دعا – دعا على بصيرة.

ولم يقبلوا (المقلد) فى الإمامة والقضاء إلا من باب الضرورات التى تبيح المحظورات، والنزول من المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى.

على أن من الواجب على الأمة أن تتدارك أمورها، وتصلح من شأنها، حتى لا يلى أمورها إلا أكفاء الناس، وأصلحهم للقيادة علماً وعملاً.

ولم يُجز أحد من الفقهاء أن يلى أمور المسلمين فى السياسة، والقضاء مَن

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير. (اللؤلؤ والمرجان: ١٠٢٨).

يجهل شرع الله، الذى هو أساس الحكم بين المسلمين، فإنه سيحكم بالجهل أو الهوى، وكلاهما فى النار.

روى بريدة مرفوعا: «القضاء ثلاثة، واحد فى الجنة، واثنان فى النار، فأما الذى فى الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق وجار فى الحكم فهو فى النار ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار» (١).

العلم هو المبين لمراتب الأعمال وأولوياتها:

ثم إن العلم هو الذى يبين راجح الأعمال من مرجوحها، وفاضلها من مفضولها، كما يبين صحيحها من فاسدها، ومقبولها من مردودها، ومسنونها من مبتدعها، ويعطى كل عمل «سعره» وقيمته فى نظر الشرع.

وكثيراً ما نجد الذين حُرِموا نور العلم يذيبون الحدود بين الأعمال، فلا تتمايز، أو يحكمون عليها بغير ما حكم الشرع، فيُفْرِطون أو يَفرِّطون، وهنا يضيع الدين بين الغالى فيه والجافى عنه.

وكثيراً ما رأينا مثل هؤلاء - مع إخلاصهم - يشتغلون بمرجوح العمل، ويدعون راجحه، وينهمكون فى المفضول، ويغفلون الفاضل.

وقد يكون العمل الواحد فاضلاً فى وقت مفضولا فى آخر - راجحًا فى حال مرجوحًا فى آخر، ولكنهم - لقلة علمهم وفقههم - لا يفرقون بين الوقتين، ولا يميزون بين الحالين.

خلل فى فقه الأولويات:

رأيت من المسلمين الطيبين فى أنفسهم من يتبرع ببناء مسجد فى بلد حافل بالمساجد، قد يتكلف نصف مليون أو مليونًا من الجنيهات أو الدولارات، فإذا طالبته ببذل مثل هذا المبلغ أو نصفه أو نصف نصفه فى نشر الدعوة إلى

---

(١) قال ابن تيمية فى (منتقى الأخبار): رواه ابن ماجة وأبو داود. وقال فى «نيل الأوطار» ج ٩/١٦٧ أخرجه أيضا الترمذى والنسائى والحاكم وصححه. وقال الحافظ: له طرق غير هذه جمعتها فى جزء مفرد. اهـ. وهى فى أبى داود فى الأقضية (٣٥٧٣) وفى الترمذى فى الأحكام (١٣٢٢) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣١٥) وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٤٣٢٢).

الإسلام، أو مقاومة الكفر والإلحاد، أو فى تأييد العمل الإسلامى لاقامة الحكم بما أنزل الله، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة التى قد تجد الرجال ولا تجد المال، فهيهات أن تجد أذنًا صاغية، أو إجابة ملبية، لأنهم يؤمنون ببناء الأحجار، ولا يؤمنون ببناء الرجال!

وفى موسم الحج من كل عام أرى أعدادًا غفيرة من المسلمين الموسرين يحرصون على شهود الموسم متطوعين، وكثيرًا ما يضيفون إليه العمرة فى رمضان، وينفقون فى ذلك عن سخاء، وقد يصطحبون معهم أناسًا من الفقراء على نفقتهم، وما كلف الله بالحج هؤلاء، فإذا طالبتهم ببذل هذه النفقات السنوية ذاتها لمقاومة الغزو التنصيرى فى اندونيسيا، أو الغزو الشيوعى فى أفغانستان. لووا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون.

هذا مع أن الثابت بوضوح فى القرآن الكريم: أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج. كما قال تعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ**﴾ [التوبة ١٩ - ٢١].

هذا مع أن حجهم واعتمارهم من باب التطوع والتنفل، أما جهاد الكفر والالحاد والعلمانية والتحلل، وما يسندها من قوى داخلية وخارجية، فهو الآن فريضة العصر، وواجب اليوم.

ولقد رأيت شبابًا مخلصين كانوا يدرسون فى كليات جامعية فى الطب، أو الهندسة، أو الزراعة، أو الآداب، أو غيرها من الكليات النظرية، أو العلمية، وكانوا من الناجحين بل المتفوقين فيها، فما لبثوا إلا أن أداروا ظهورهم لكلياتهم، وودعوها غير آسفين، بحجة التفرغ للدعوة والإرشاد والتبليغ، مع أن عملهم فى تخصصاتهم هو من فروض الكفاية التى تأثم الأمة جميعها إذا فرطت فيها،

ويستطيعون أن يجعلوا من عملهم عبادة وجهاداً إذا صحت فيه النية والتزمت حدود الله تعالى.

ولو ترك كل مسلم مهنته فمن ذا يقوم بمصالح المسلمين ؟ ولقد بُعث الرسول ﷺ ، وأصحابه يعملون فى مهن شتى ، فلم يطلب من أحد منهم أن يدع مهنته ليتفرغ للدعوة ، وبقى كل منهم فى عمله وحرفته ، سواء قبل الهجرة أم بعدها . فإذا دعا داعى الجهاد ، واستنفروا نفروا خفافًا وثقالا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

ولقد أنكر الإمام الغزالى على أهل زمنه توجه جمهور متعلميهم إلى الفقه ونحوه ، على حين لا يوجد فى البلد من بلدان المسلمين إلا طبيب يهودى أو نصرانى يوكل إليه علاج المسلمين والمسلمات ، وتوضع بين يديه الأرواح والعورات .

ورأيت آخرين يقيمون معارك يومية من أجل مسائل جزئية أو خلافية ، مهملين معركة الإسلام الكبرى مع أعدائه الحاقدين عليه ، والطامعين فيه ، والخائفين منه والمتربصين به .

حتي في قلب أمريكا وكندا وأوروبا ، وجدت من جعلوا أكبر همهم : الساعة أين تُلبس . . أفى اليد اليمنى أم اليسرى ؟

ولبس الثوب الأبيض بدل « القميص والبنطلون » واجب أم سنة ؟

ودخول المرأة فى المسجد : حلال أم حرام ؟

والأكل على منضدة ، والجلوس على الكرسى للطعام ، واستخدام الملعقة والشوكة : هل يدخل فى التشبه بالكفار أم لا ؟

وغيرها . . وغيرها من المسائل التى تأكل الأوقات ، وتمزق الجماعات ، وتخلق الحزازات ، وتُضيع الجهود والجهاد ، لأنها جهود فى غير هدف ، وجهاد مع غير عدو .

ورأيت فتياناً ملتزمين متعبدين يعاملون آباءهم بقسوة ، وأمهاتهم بغلظة ، وأخواتهم بعنف ، وحجتهم أنهم عصاة أو منحرفون عن الدين ، ناسين أن الله

تعالى أوصى بالوالدين حسنًا ، وإن كانا مشركين يجاهدان ولدهما على الشرك ، ويحاولان بكل جهدهما فتنته عن إسلامه .

يقول تعالي : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ [لقمان : ١٥].

فرغم المحاولة المصرة من الأبوين ، التى سماها القرآن ، مجاهدة على الشرك، أمر بمصاحبتهما بالمعروف ، لأن للوالدين حقًا لا يفوقه إلا حق الله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ [لقمان : ١٤].

أما الطاعة لهما فى الشرك فهى مرفوضة ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. وأما المصاحبة بالمعروف فلا مناص منها ، ولا عذر فى التخلى عنها .

الابتداع فى الدين سببه نقص العلم :

ورأينا أناسا مخلصين ، يشرعون فى الدين ما لم يأذن به الله ، يحرمون ما لم يحرمه الله ورسوله ، ويأمرون بما لم يأمر به الله ورسوله ، ويتعبدون الله بغير ما شرع ، بل بالأهواء والبدع .

شفيعهم لذلك – فيما زعموا – حُسن نيتهم ، وصفاء طويتهم ، وصدق رغبتهم فى التقرب إلى الله تعالى .

وهذا فهم خاطئ لمعنى العمل الصالح المقبول عند الله تبارك وتعالي .

فلا يكفى فى حسن العمل حسن النية ، وحرارة الإخلاص حتى يكون العمل مأذونًا به ، ممهورًا بخاتم الشرع .

ولله در العالم الزاهد الورع – الفضيل بن عياض – الذى عبر عن هذا المعنى بعبارات جامعة ناصعة ، حين سئل عن « أحسن العمل » فى قوله تعالي : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ قال : أحسن العمل أخلصه وأصوبه .

قالوا : يا أبا على : ما أخلصه ؟ وما أصوبه ؟

قال : إن العمل إذا كان خالصًا ، ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل . ولا يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا .

والخالص ... أن يكون لله .

والصواب ... أن يكون على السنة [١] .

فضل العلم على العبادة :

والإسلام – فيما نعلم – أول دين يفضل الاشتغال بالعلم وطلبه ، والتبحر فيه على التطوع بالشعائر المعروفة ، من صلاة وصيام وحج ونحوها مع أن القرآن يعلن فى صراحة وجلاء أن الله تعالى لم يخلق الثقلين إلا ليعبدوه ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ولكن العبادة إذا أديت على غير علم ، فهى كبنيان على غير أساس ، فالعلم هو الذى يوضح أركان العبادة ، وشروطها ، وآدابها الظاهرة ، وأسرارها الباطنة ، كما يبين ما يصححها وما يبطلها و ما يكملها أو ينقصها .

والعلم يعرف صاحبه بمنازل الأشياء ، ومراتب الأعمال ، حتى يميز بين النفل والفرض ، ويبين المهم وغير المهم ، ويبين الأصول والفروع ، فلا يقدم نافلة على فريضة ، ولا يقدم غير المهم على المهم ، ولا يضيع أصلاً من أجل فرع .

وفى مثل هذا قال السلف : إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة .

وقالوا : من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور [٢] .

ومن فضل العلم على العبادة أن معظم العبادات قاصرة النفع لا تتجاوز صاحبها ، فالمصلى والصائم ، والحاج والمعتمر ، والذاكر والمسبح ، يزيد عملهم

---

(١) انظر : كتابنا « العبادة فى الإسلام » فصل : « لا يعبد الله إلا بما شرع ص ١٦٥ – ١٧٤ – مؤسسة الرسالة – بيروت .

(٢) رأينا من الناس من يصوم الاثنين والخميس تطوعًا ، ثم يفرط فى واجبه نحو عمله اليومى الذى يتقاضى عليه أجرًا ، بحجة تعبه من الصيام ، أو يقصر فى واجبه نحو أسرته أو المجتمع من حوله .

ورأينا من يحج أو يعتمر كل عام ، ومع هذا يماطل فى قضاء ديونه ، أو يجور على عماله وموظفيه ، أو يتعامل مع المصارف بالربا .. الخ ، وهذا كله فى الأغلب نتيجة لقلة الفقه فى الدين .

من حسناتهم ، ويرفع من درجاتهم ... ولكن المجتمع من ورائهم لا ينال من جراء عبادتهم شيئًا مباشرًا ، يحقق لهم منفعة ، أو يدفع عنهم مضرة .

أما العلم فنفعه متعد ... لا يقتصر على صاحبه ، بل يتجاوزه إلي غيره من الناس من كل من يسمعه ، أو يقرؤه ، وقد يكون بينه وبينهم جبال ووهاد ، أو بحار وقفار .

فالعلم لا يعرف القيود ، ولا يعترف بالحواجز والسدود ، وخاصة فى عصرنا الذي ينشر فيه العلم المسموع بالإذاعة ، والمرئى بالتلفاز ، في ثوان معدودة ، بل فى نفس اللحظة ، إلى المستمعين والمشاهدين فى مساحات شاسعة . وينشر العلم المكتوب بوساطة الطباعة الحديثة إلي آفاق المعمورة فى أيام بل ساعات معدودات .

ولا عجب أن روى أبو أمامة – رضي الله عنه – قال : ذكر للنبى ﷺ رجلان ، أحدهما عالم ، والآخر عابد ، فقال عليه الصلاة والسلام : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » (١) .

وروى عنه حذيفة بن اليمان : « فضل العلم خير من فضل العبادة » (٢) .

وقد تقدم حديث أبى الدرداء : « فضل العالم علي العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

ومن فضل العلم على العبادة : أنه لا ينقطع بانقطاع الحياة ، ولا يموت بموت أصحابه .

فمن صلى ، أو صام ، أو زكى ، أو حج ، أو اعتمر ، أو سبح وهلل وكبر ،

---

(١) رواه الترمذى فى العلم (٢٦٨٦) وقال : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) رواه الطبرانى فى « الأوسط » والبزار بإسناد حسن / قاله المنذرى فى الترغيب . حديث (١٠٣) .

وقال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١ / ١٢٠) : فيه عبد الله بن عبد القدوس ، وثقه البخارى وابن حبان ، وضعفه ابن معين .

فإن هذه الأعمال لها مثوبتها الجزيلة عند الله تعالي ، ولكنها تنتهى بانتهاء أدائها والفراغ منها .

أما العلم فإن أثره يظل باقيًا ممتدًا ، ما دام فى الناس من ينتفع به ، مهما تطاولت السنون ، وتعاقبت القرون .

فعن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (١) .

وقال أيضًا : « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علمًا علمه ونشره ، وولدًا صالحًا تركه ، أو مصحفًا ورثه ، أو مسجدًا بناه ، أو بيتًا لابن السبيل بناه ، أو نهرًا أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته ، تلحقه من بعد موته » (٢) .

وبهذا يعيش العالم عمرًا طويلاً بعد عمره المحدود ، وبخاصة من كتب وصنف ، فإن عمر المكتوب أطول ، وأثره أبقى .

ألا ترى أننا اليوم ننتفع بتراث علمائنا السابقين ، وندعو لهم ، ونترحم عليهم ، وبيننا وبينهم أزمان وقرون تندق فيها أعناق المطى .

قال يحيى بن أكثم : قال الرشيد يومًا : ما أنبل المراتب ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ما أنت فيه . قال : فتعرف من هو خير منى ؟ قلت : لا ، قال : لكنى أعرفه . رجل يقول : حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ .

قال : قلت يا أمير المؤمنين : أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ ، وولى عهد المؤمنين ؟

قال : نعم ، ويلك ! هذا خير منى ، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله – ﷺ – لا يموت أبدًا . ونحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقى الدهر(٣) .

---

(١) رواه مسلم فى الوصية (١٦٣١) .

(٢) رواه ابن ماجة بإسناد حسن فى المقدمة (٢٤٢) وقال فى الزوائد : إسناده غريب وقد رواه ابن خزيمة فى صحيحه بنحوه .

(٣) ذكره ابن القيم فى « مفتاح دار السعادة » جـ ١ / ١٦٥ طبعة دار الكتب لبنان .

وما أبلغ ما قال الإمام على – رضى الله عنه – لكميل بن زياد : « العلم خير من المال : العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والعلم يزكو على الإنفاق ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه » .

« العلم يكسب العالم الطمأنينة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله ، مات خُزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة » (١) .

الاشتغال بالعلم أفضل ما يتطوع به :

وهذه الأحاديث وما جاء فى معناها ، وما جاء في فضل العلم عامة – هى التى جعلت كثيراً من السلف يعدون العلم أفضل ما يتطوعون به متقربين لله تعالى .

فعن ابن مسعود قال : الدراسة صلاة .

وعن أبى الدرداء قال : مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليل .

وعن ابن عباس : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلىَّ من إحيائها .

وعن أبى هريرة : لأن أجلس ساعة فأفقه فى دينى أحب إلىَّ من أن أحيى ليلة إلى الصباح .

وقال قتادة : باب من العلم يحفظه الرجل لعلاج نفسه ، وصلاح من بعده، أفضل من عبادة حول .

وقال الثورى : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم .

وعنه أيضًا : ما أعلم اليوم شيئًا أفضل من طلب العلم ، قيل له : ليس لهم نية ! قال : طلبهم له نية .

وقال ابن وهب : كنت عند مالك قاعداً أسأله ، فجمعت كتبى لأقوم .

---

(١) قال ابن القيم : ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره . وقال أبو بكر الخطيب : هذا حديث من أحسن الأحاديث وأشرفها لفظًا . المصدر السابق ص ١٢٣ .

قال مالك : أين تريد ؟ قال : قلت : أبادر إلى الصلاة . قال : ليس هذا الذى أنت فيه دون ما تذهب إليه ، إذا صح فيه النية .

وقال الزهرى : ما عبد الله بمثل الفقه .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : حظ من علم أحب إلىَّ من حظ من عبادة .

وقال الشافعى : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة [١] .

وقد نقل عن أبى حنيفة مثل ما نقل عن الشافعى ومالك وسفيان من تفضيل العلم على سائر النوافل [٢] .

هؤلاء هم أئمة الفقه وأصحاب المذاهب المتبوعة .

وبهذا يتضح أن المفاضلة بين العلم والعبادة لا تعنى المفاضلة بين العلم المفروض والعبادة المفروضة ، ولا بين نفل العلم وفرض العبادة ، ولا العكس ، فإنه لا مفاضلة بين فريضتين لا زمتين .

فلا يجوز أن يشغل شئ عن العبادة المفروضة كالصلاة ، والمحافظة عليها وأدائها فى وقتها ، ولو كان هو طلب العلم .

ولا يتصور من ذى علم أن يجيز لنفسه أو غيره الاشتغال بالعلم عن أداء الفرائض المكتوبة .

ولهذا لما نقل المحقق ابن القيم حديث عائشة ، « فضل العلم خير من نفل العمل » ، قال : وهذا الكلام هو فصل الخطاب فى المسألة ، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضاً فلا بد منهما كالصوم والصلاة ، فإذا كانا فضلين – وهما النفلان المتطوع بهما – ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها ، لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه ، والعبادة يختص نفسها لصاحبها ، ولأن العلم تبقى فائدته ، ولما مر من الوجوه السابقة [٣] .

---

(١) انظر : « جامع بيان العلم » لابن عبد البر جـ ١ / ٢٥ باب تفضيل العلم على العبادة .

(٢) انظر : « مفتاح دار السعادة » لابن القيم جـ ١ / ١١٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

فضل العلم على الجهاد :

ويندرج فى فضل العلم على العبادة فضله على الجهاد الذى هو ذروة سنام الإسلام الذى استفاضت فى بيان فضيلته آيات القرآن وأحاديث الرسول .

يقول الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود أحد أوعية العلم ، ومصابيح الهدى : والذى نفسى بيده ، ليودَّنَّ رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء ، لما يرون من كرامتهم [١] أى : من كرامة العلماء .

ويقول الفقيه الداعية المربى الحسن البصرى : يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ، فيرجح مداد العلماء .

ذلك أن الجهاد لا يعرف فضله إلا بالعلم .

ولا تتضح شروطه وحدوده إلا بالعلم .

ولا يتبين الجهاد المشروع من القتال غير المشروع إلا بالعلم .

ولا يتميز النفل فيه عن الفرض إلا بالعلم .

ولا يعرف فرض الكفاية فيه من فرض العين إلا بالعلم .

وكم رد النبى ﷺ من مسلم جاءه يجاهد معه ، لأنه رأى أنه ترك واجبًا يخصه ألزم من الجهاد ، فعن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلي النبى – ﷺ – فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : « أحيٌّ والداك » ؟

قال : نعم ، قال : « ففيهما فجاهد » [٢] .

وفى رواية : أن الرجل قال : يا رسول الله ، جئت أريد الجهاد معك ، ولقد أتيت وإن والدى يبكيان . قال : « فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما » [٣] .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » ص / ١٢١ .

(٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (١٦٥٣) .

(٣) قال فى « المنتقى » : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه . وقال فى « النيل » أخرجها أيضاً النسائي وابن حبان ، وأخرجها أيضاً مسلم وسعيد بن منصور من وجه آخر فى نحو هذه القصة وهى فى أحمد (٢ / ٢٠٤) وأبى داود فى الجهاد (٢٥٢٨) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٨٢) قال : ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما « نيل الأوطار » جـ ٨ / ٣٧ ، ٣٨ والترغيب جـ ٧ حديث ٣٥٨٤ .

وعن أبى سعيد : أن رجلاً هاجر إلى النبي ﷺ من اليمن ، فقال : « هل لك أحد باليمن ؟ فقال : أبواى ، فقال : أذنا لك ؟ فقال : لا ، قال : ارجع إليهما فاستأذنهما ، فإن أذنا لك فجاهد ، وإلا فبرهما »[1] .

وفي حديث آخر أنه – ﷺ – قال لمن جاء يستشيره فى الغزو معه : هل لك من أم ؟ قال : نعم ، فقال : « الزمها فإن الجنة عند رجليها »[2] .

وبهذه الأحاديث استدل العلماء على وجوب استئذان الأبوين فى الجهاد ، وبذلك قال الجمهور ، وجزموا بتحريم الجهاد إذا منع عنه الأبوان أو أحدهما ، لأن برهما فرض عين ، والجهاد فرض كفاية ، فإذا صار الجهاد فرض عين فلا إذن ، لأن تركه معصية ، ولا طاعة لبشر فى معصية الله تعالى .

وهذا بشرط أن يكون الأبوان مسلمين ، لأن الكافرين لا يرضيان يومًا بالجهاد لنصرة الإسلام وخذلان دينهما .

وكل هذه الحدود والفوارق الدقيقة إنما تعرف بالعلم ، فمن أعرض عن العلم ، واشتغل بالجهاد كان حريًا أن يقع فى الخطأ ، أو ينحرف عن سواء الصراط وهو لا يدرى .

وكم من أناس فى الماضى حملوا سيوفهم على عواتقهم يقاتلون من عصم الله دماءهم وأموالهم يزعمون أنهم بذلك يجاهدون ، فيقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ! أولئك هم الخوارج الذى صح الحديث فى ذمهم من عشرة أوجه كما قال الإمام أحمد بن حنبل ، وأيده ابن تيمية .

وما ذلك إلا لأنهم تعبدوا قبل أن يتعلموا ، وجاهدوا قبل أن يتفقهوا ، وتعجلوا العمل قبل العلم ، فضل سعيهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وكم من شباب فى زمننا دفعهم الحماس الكثير فى صدورهم ، مع العلم

---

(١) رواه أبو داود فى الجهاد (٢٥٣٠) وصححه ابن حبان كما فى الاحسان (٤٢٢) .

(٢) رواه النسائى فى الجهاد (٣١٠٤) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٨١) ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد قاله المنذرى فى الترغيب حديث (٣٥٩١) .

القليل فى رؤوسهم ، والإعجاب المزهو برأيهم ، إلي رفض أمتهم ، وتكفير جماهيرها ، واعتبار أوطانها ديار كفر لا دار إسلام ، فاستحلوا بذلك ما حرم الله، وأسقطوا ما أوجب الله ، اتباعًا لمتشابه النصوص ، وابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله .

ولو تعلموا وفقهوا ، وتلقوا العلم من أهله ، وعرفوه من مناهله ، لوقف بهم العلم عند حدودهم ، وعرفهم حقيقة الجهاد : كيف يكون ؟ ومتى يكون ؟ ولمن يكون ؟

وهذا ما نصح به الإمام الحسن البصرى – رضي الله عنه – حيث يقول : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح . فاطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة واطلبوا العبادة طلبًا لا يضر بالعلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد – ﷺ – ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا (١) .

على أن الجهاد الذى جاء به الإسلام ليس كله جهادًا بالسيف ، فهناك جهاد بالقلب واللسان ، والحجة والبيان ، أي جهاد بالعلم . وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ** – أى القرآن – **جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [الفرقان : ٥٢]

فلم يكتف القرآن بتسميته جهادًا ، بل سماه « جهادًا كبيرًا » وهذا في مكة قبل أن يُشرَع القتال .

وهو جهاد المنافقين في قوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة : ٧٣] و [التحريم : ٩].

فجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان . ولا تعجب إذا جاء فى الحديث « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتي يرجع »(٢) .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » طبعة / ٨٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم برقم (٢٦٤٩) من حديث أنس وقال : حديث حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه وأخرجه أيضا الضياء فى المختارة ، وقال المناوى فى الفيض (٦ / ١٢٤) : فيه خالد بن يزيد اللؤلؤى ، قال العقيلى : لا يتابع على كثير من حديثه ، ثم ذكر له هذا الخبر ، وله شاهد بمعناه من حديث أبى هريرة أخرجه ابن ماجه رقم ٢٧٧ بلفظ « من جاء مسجدى هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله » وقال فى الزوائد : إسناده صحيح على شرط مسلم وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبى (١ / ٩١) .

قال الإمام ابن القيم : « إنما جعل طلب العلم في سبيل الله ، لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد . فقوام الدين بالعلم والجهاد . ولهذا كان الجهاد نوعين : جهاد باليد والسنان . وهذا المشارك فيه كثير . والثانى الجهاد بالحجة والبيان . وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل ، وهو جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين ، لعظم منفعته ، وشدة مؤنته . وكثرة أعدائه . قال تعالى في سورة الفرقان ، وهى مكية ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً** ﴾ [٥١ ، ٥٢] . فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين . وهو جهاد المنافقين أيضاً ، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم فى الظاهر ، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم . ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ . ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن . قال : والمقصود أن « سبيل الله » هى الجهاد ، وطلب العلم ، ودعوة الخلق به إلى الله ، ولهذا قال معاذ رضي الله عنه : عليكم بطلب العلم ، فإن تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد . ولهذا قرن – سبحانه – بين الكتاب والميزان والحديد الناصر، كما قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فذكر الكتاب والحديد ، إذ بهما قوام الدين . كما قيل :

فما هو إلا الوحى أوحد مُرْهَفٍ تميل ظباه اخدعى كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

والمقصود أن كلاً من الجهاد بالسيف والحجة يسمى (سبيل الله) وفسر الصحابة رضى الله عنهم قوله تعالى : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء : ٥٩] – بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون فى سبيل الله : هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم .

فطلب العلم وتعلمه من أعظم سبيل الله عز وجل .

قال كعب الأحبار : طالب العلم كالغادى الرائح فى سبيل الله عز وجل .

وجاء عن بعض الصحابة رضى الله عنهم : إذا جاء الموت طالب العلم ، وهو على هذا الحال ، مات وهو شهيد .

وقال سفيان بن عيينة : من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل .

وقال أبو الدرداء : من رأى الغدو والرواح إلي العلم ليس بجهاد ، فقد نقص فى عقله ورأيه [١] .

العلم ينفع فى الدنيا قبل الآخرة :

ومن فضائل العلم ومزاياه : أن نفعه لأهله لا يقتصر على ثواب الآخرة وحدها ، بل ينفعهم فى الدارين ، ويجمع لهم بين الحسنيين ، ويرفع درجاتهم عند الله وعند الناس ، فثمراته معجلة ، وقطوفه دانية .

قال الإمام الحسن البصرى في تفسير قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ [البقرة : ٢٠١] هى العلم والعبادة ﴿ **وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ : هى الجنة .

قال الإمام ابن القيم : وهذا من أحسن التفاسير فإن أجل حسنات الدنيا : العلم النافع والعمل الصالح [٢] .

ومن أجمل ما ورد فى ذلك قصة ابن أبزى . ذلك أن نافع بن عبد الحارث لقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعُسفان – وكان عمر ولاه على مكة فسأله : من استخلفت على أهل الوادى ؟ فقال : ابن أبزى . قال : ومن ابن أبزى ؟ قال : مولى من موالينا . قال : فاستخلفت عليهم مولى ؟ قال : إنه قارئ لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض (المواريث) قال عمر : أما إن نبيكم – ﷺ – قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين » [٣] .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » جـ ١ / ٧٧ و ٧١ .

(٢) « مفتاح دار السعادة » ١ / ٧٧ .

(٣) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٨١٧) وأحمد (١ / ٣٥) – الفتح الربانى (١ / ١٤٦) .

وقال إبراهيم الحربى :

« كان عطاء بن أبى رباح عبداً أسود لامرأة من مكة ، قال : وجاء سليمان ابن عبد الملك – أمير المؤمنين – إلى عطاء هو وابناه ، فجلسوا إليه وهو يصلى ، فلما صلى انفتل إليهم ، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج ، وقد حول قفاه إليهم ! ثم قال سليمان لابنيه : قوما، فقاما . فقال : يا بنى لاتنيا في طلب العلم، فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود ! [١] .

ضياع العلم مؤذن بخراب الدنيا :

وقد نبهت الأحاديث الصحيحة إلى حقيقة مهمة ، وهى : أن الحياة بغير علم لا تستحق البقاء ، وأن ضياعه أو إضاعته نذير بخراب الدنيا ، وأن الساعة على الأبواب .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ، ويثبت الجهل ، (وفى رواية : يقل العلم ويكثر الجهل) ويشرب الخمر ، ويظهر الزنى » [٢] .

قال العلامة الكرمانى فى شرحه للبخارى : إنما كان اختلال هذه الأمور مؤذناً بخراب العالم ، لأن الخلق لا يتركون هملاً ، ولا نبى بعد نبينا – ﷺ – فيتعين ذلك [٣] .

والمراد بالعلم هنا : علم الدين الموروث عن النبوة ، فهو الذى يهدى الناس إلى الله ، ويقفهم عند حدوده ، ويعرفهم أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه .

ولا يبعد أن يضيع الناس هذا العلم وإن وصلوا فى علم الدنيا إلي غزو الفضاء والصعود إلى الكواكب ، فقد يفعلون ذلك وهم بالله جاهلون ، وعنه غافلون ، كعامة الغربيين اليوم ، إلا من رحم ربك ، فهم كالذين وصفهم الله

---

(١) « مفتاح دار السعادة » جـ ١ / ١٦٥ .

(٢) البخارى : كتاب « العلم » (٨٠) .

(٣) فتح البارى جـ ١ ص ١٨٩ .

تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم : ٦ ، ٧] .

فانظر كيف نفى الله عنهم العلم بقوله : ﴿ **لا يَعْلَمُونَ** ﴾ ثم قال : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ ولا يناقض هذا الإثبات ذلك النفى ، لأن هذا النوع وهذا المستوى من العلم – العلم بظاهر من الدنيا مع الغفلة عن المصير – هو علم أشبه بالجهل . فلا عجب أن يوصف أصحابه بأنهم لا يعلمون .

ولكن كيف يرفع العلم ويذهب ؟ إنه يذهب بذهاب أهله الذين يُرجَعُ إليهم فى المعضلات ، ويُحتكم إليهم عند الخلاف ، الذين إذا استفتوا أفتوا بعلم، وإذا استقضوا قضوا بحق ، وإذا دعوا كانت دعوتهم علي بصيرة .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا من العباد (أى : محوا من الصدور) ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤوساء جهالاً ، فَسُئِلُوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » (١) .

وكان تحديث النبى – ﷺ – بذلك فى حجة الوداع ، كما رواه أحمد والطبرانى من حديث أبي أمامة ، قال : لما كان فى حجة الوداع قال النبى – ﷺ – : « خذوا العلم قبل أن يُقبض أو يُرفع . فقال أعرابى : كيف يُرفع ؟ فقال : ألا إنّ ذهاب العلم ذهاب حملته » ثلاث مرات (٢) .

ومن هنا كان موت العلماء الثقات مصيبة يحزن لها المؤمنون ، ويسألون الله الصبر عليها ، والعوض عنها ، حتى روى عن عمر قوله : لموت ألف عابد ، قائم النهار ، صائم الليل ، أهون من موت عالم ، بصير بحلال الله وحرامه » (٣) .

---

(١) هو في صحيح البخارى . فى العلم (١٠٠) . وفى صحيح مسلم كتاب العلم حديث رقم (٢٦٧٣) .

(٢) ذكره الحافظ فى « الفتح » جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٣) ذكره الغزالى فى الإحياء .

ولما مات زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وقارئ القرآن ، وعالم الأنصار ، قال عبد الله بن عباس : من سره أن ينظر كيف ذهاب العلم ، فهكذا ذهابه .

وقال الحسن : موت العالم ثلمة ، (أى : ثغرة وخلل فى البناء) فى الإسلام، لا يسدها شئ ما أطرد الليل والنهار .

وقال ابن عباس أيضًا : لا يزال عالم يموت ، وأثر للحق يُدرس ، حتى يكثر أهل الجهل ، وقد ذهب أهل العلم ، فيعملون بالجهل ، ويدينون بغير الحق ، ويضلون عن سواء السبيل .

وكان أبو الدرداء يقول : مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ؟ تعلموا قبل أن يُرفع العلم ، فإن رفع العلم ذهاب العلماء [١] .

كذلك كان حرصهم على طلب العلم وتعليمه وتدوينه ، حتى لا يأتى وقت يفقدون فيه من يحمله ، ويقوم يحقه .

كتب عمر بن عبد العزيز فى خلافته إلي أبي بكر بن حزم – واليه على المدينة – يقول له : انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا يقبل إلا حديث النبي ﷺ وليُفْشوا العلم ، وليجلسوا ، حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً [٢] .

فهو بهذا يرفع شعار : العلم للجميع .

قال الحافظ فى « الفتح » : وقد روى أبو نعيم : فى « تاريخ أصبهان » هذه القصة بلفظ : « كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : انظروا حديث الرسول – ﷺ – فاجمعوه » [٣] .

* * *

---

(١) روى هذه الآثار كلها ابن عبد البر فى جامع بيان العلم – باب ما روى فى قبض العلم وذهاب العلماء .

(٢) ذكر ذلك البخارى معلقًا بصيغة الجزم . كتاب العلم باب (٣٤) .

(٣) الفتح جـ ١ ص ٢٠٤ .